المعايير البلاغية لفصاحة الكلمات القرآنية

د . حسين محمّد العربي ـ كلية الآداب- جامعة سبها

الملخص :

هذا البحث يلقي الضوء على الكلمات أو الألفاظ القرآنية من حيث المادة والصياغة وموقعها في الآيات، ودلالتها ومعانيها وملائمتها للموقع والسياق، وقد قسمت البحث إلى مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة، تناولت في المقدمة أسباب اختياري للموضوع، ومشكلة البحث، وفي المبحث الأول تناولت مادة اللفظ القرآني، وفي المبحث الثاني: صورة اللفظ القرآني، وفي المبحث الثالث: دلالة اللفظ القرآني، وفي المبحث الرابع: موقع اللفظ القرآني.

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة، فهو المنهج الوصفي النقدي، حاولت فيه إبراز العناصر البلاغية في المعايير البلاغية لفصاحة الكلمات القرآنية

Research Summary

This research sheds light on the Quranic words or expressions in terms of material, formulation, and their position in the verses, their significance and meanings, and their suitability for the site and context. In the second topic: the image of the Qur'anic term, and in the third topic: the significance of the Qur'anic term, and in the fourth topic: the location of the Qur'anic term.

المقدمـــــــــة :

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلام على خاتَم النبيّين والمرسلين، وعلى آله وصحبِه، ومَن تبعَهم إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فإنَّ معجزةَ القرآن الكريم تتجلى- بصورةٍ كبيرة- في تحدّيه لمجتمعِ البلاغة والفصاحة أنْ يأتوا بمثله أو حتى ببعضِه، فجاء مُعجزًا في معناه ولفظِه، ولقدْ أولى العلماءُ- لغة وشريعة- القرآنَ الكريم أهميةً عظمى لبيانِ إعجاز ألفاظه ومعانيه، وتنوَّعت مذاهبُهم في ذلك على حسبِ ثقافاتهم واتِّجاهاتهم. وعلى الرّغم من كثرةِ هذه الآراء إلا إنَّها- على كثرتها- لم تصلْ إلى الرأي الفصْل والجامعِ في هذا الموضوع، ولعلَّ هذا في حدِّ ذاته من أســـرار الإعجاز القرآني، فتعددُ الآراء في شرحِه وبيانه دونَ الوصول إلى حقيقته وماهيتِه يجعل البحثُ فيه مستمرًّا لا ينقطع، ومتجدِّدًا لا يخلق ، ومشوقًا لا

يمل ، وهذا سرٌّ بديع، جديرٌ بالنظر والتقدير.

قال ابنُ ســـــراقة : اختلف أهلُ العلم في وجْه إعجاز القرآن ، فذكروا في ذلك وجوهًا كثيرة، كلها حكمةٌ وصواب ، وما بلغوا في وجوهِ إعجازه جزءًا واحدًا من عُشْر مِعشاره.

ومما تجدرُ الإشارة إليه أنَّ جلَّ العلماء أقرّوا بأنَّ القرآنَ الكريم مُعجزٌ بنظمِه البديع، وتأليفه العجيب، المباين لما أثِر عن العربِ الفصحاء، والذي أعجزَ أساطينهم، حين تحدّاهم فلم يستطيعوا الإتيانَ بمثله، أو بمثل أقصرِ سورةٍ منه.

ولما كانتِ الكلمات الألفاظ جزءًا أساسيًّا من أجزاء النظم، اقتضى ذلك البحثَ في خصائصها وسماتها، لإظهارِ حُسنها وكمالها، نظرًا لأنَّ صفاتها في النهاية تعودُ إلى النظم.

مشكلة البحث:

إلقاء الضوءَ على اللفظ القرآني، من حيث مادته، وصيغته، وموقعه، ودلالته، وملاءمته للسّياق، وغيرِ ذلك ممّا يبرز السماتِ الفنيةَ للّفظ القرآني، ويُظهر فضلَه وتميزَه على ما سواه. واللهُ الهادي إلى سواء السبيل.

المبحث الأول ـ اللفظ القرآنـــــــــي :

تعريف اللفظُ القرآني : هو اللفظُ الذي استُعملَ في آيةٍ من آيات القرآن الكريم، ووجدَ في جملةٍ من جمله، فهو بهذا قد اكتسبَ وصفًا شريفًا لم يحظَ به لفظٌ آخر من الألفاظ التي لم تردْ في كتاب الله العظيم ، والمتأملُ في الألفاظ القرآنية يراها في جُملتها من ألفاظِ اللغة العربية ذاتها، فهي ليستْ بغريبةٍ عنها، ولا خارجةً عليها ، وقد حققَ القرآنُ الكريم بلفظِه المُعجز وبيانه العربي أمريْن :

الأوَّل : أنَّ القـــرآنَ الكريم بمجرد نزولِ آياتـــــه قد صار مصدرَ هداية ورشادٍ في البيئة العربية ؛ حيث سهَّل عليهم تعقلَ آياته ، وتدبُّر تشريعاتِه، ولم يحلْ بينهم وبين فهمِه حائل، فهو بلغتِهم ولسانهم. قال – تعالى - : **(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)**. وبذلك قطعتِ الأعذار، ومُنعتِ الحيل، ولم تترك للصّادينَ عن الهدايةِ حجة ، ولو نزلَ بلسان أعجمي لقالوا: لا نفقهُه ولا نفهمه، ولو كان نزلَ بلساننا لآمنّا به. قال - تعالى - : **(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ)**.

الثانـــــــي : صحةُ التحدّي، وثبوتُ الإعجاز، إذْ لو نزل القرآنُ الكريم بغير العربية لما صـــحَّ تحدّي العرب به عقلًا؛ لأنه بغير لسانهم ، وعجزهم عن مجاراته حينئذٍ لا يثبتُ إعجازه ، إذ كانوا سيحتجّون ويقولون لنا العذرُ في عجزنا عن مجاراته ولو كانَ

بلُغتنا لأتينا بمثله ، ولكنَّ نزلَ القرآن الكريم باللغة العربية بينَ أرباب اللغة العربية، ومَن يملكون زمامَ البلاغة ، فثبتُ عجزَهم، وهذا ما تحقَّق به إعجازُ القرآن الكريم.

المعايير البلاغيـــــة لفصاحـــــةِ اللفـــــظ : وضعَ البلاغيون شروطًا لفصاحةُ اللفظ؛ حيث يكون اللفظُ حسنًا إذا اسْتوفاها، وقبيحًا إن فقدَها.

ومِن أوائل الذين دوَّنوا هذه الشروطَ في كتبهم "الجاحظ" وذلك في كتابه "البيان والتبيين" ، وتبعه في ذلك "أبو هلال العسكرس" في كتابه: "الصناعتين"، وجاهدَ "ابنُ سنان الخفاجي"، فتوسَّع في الحديث عنِ اللفظة المفردة في كتابه " سرُّ الفصاحة"، واهتمَّ ببيان شروطِ فصاحتها، وجعلَها ثمانية ، متى تكاملتْ في الكلمة فلا مزيدَ على فصاحتها، وكتبَ ابنُ الأثير، في كتابه "المثلُ السائر" فصلًا هامًّا عنِ اللفظة المفردة، فصَّل فيه ما يتصلُ بفصاحتها، ثمَّ جاء الخطيبُ القزويني، فأخرج كلامَ هؤلاء المتقدِّمين في معايير دقيقة ، فجعل فصاحةَ اللفظة المفردة مشروطةً بخلوّها من ثلاثةِ عيوب : تنافر الحروف ،والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوي ، ويضافُ إلى ذلك عيبٌ رابع هو: الابتذال ، فالكلمةُ الفصيحة لا تكون ساقطةً عامية مُبتذلة ، وبالتأمُّلِ في هذه المعايير التي جعلوها لفصاحةِ اللفظ نرى أنَّ عيبَ اللفظ وقبحَه إنما يرجعُ إلى اتجاهاتٍ عدة يمكن عرضُها فيما يلي:

1- إمّا أن يرجع إلى مادته أي : حروفه، وهو ما يُعرف بتنافر الحروف.

2- وإمّا أن يرجع إلى صورته وصيغتِه، وهو ما يُعرف بمخالفة القياس اللغوي.

3- وإمّا أن يرجع إلى دلالته على معناه، وهو ما يُعرف بالغرابة، وما يُعرف بالابتذال.

وبناءً على ذلك , رأينا أن نتناولَ في بحثنا هذا الكلمة أو اللفظَ القرآني من هذه النواحي الثلاث : مادته، وصورته، ودلالته، ثمَّ نتجاوزُ ذلك إلى ناحيةٍ أخرى ؛ موقعه، حيث إنَّ اللفظ لا تظهر قيمتُه التعبيرية إلا في التركيب.

أولًا ـ مـــــــادة اللفظُ القرآنـــــي : مادةُ اللفظ هي حروفُـــه التي يتركَّب منها، ولا بدَّ في اللفظ الفصيـح مِن أن تتناسقَ حروفُه ، وتتلاءم مخارجُه، حتى يسهلَ النطقُ به، ويجـــري على اللسانِ كما يجري الدّهان ، ويصلُ إلى السمعِ غير مُستكرَه ولا نابٍ ، فيأنس له، ويطربُ به، وتجد الأذنُ لذةً في سماعه ، كما يجدُ اللسانُ عذوبةً في نطقه.

وإذا تأملتَ الألفاظ القرآنيـــةَ وجدتَّها وقد كملتْ فيها هذه النعوت ، فهي سلسةٌ ليِّنة، معتدلةُ الحروف متناسقةُ الأصوات ؛ حيثُ الأصواتُ متلائمةُ المخارج لا تنافرَ بين حروفِها ، ولا تعسُّر في نطقها ، ويسهل جريانُها على اللسان ، ويحسنُ وقْعها في الآذان، ومعَ تنوعِ الألفاظ بين ثلاثيةٍ ورباعية وخماسية نجد أنَّ القرآنَ الكريم يؤثـــر استخدامَ الألفاظ الثلاثية الأصول التي هي أساسُ الألفاظ وأيْسرُها على اللسان، بل ويستعملُها

بكثرةٍ نظرًا لخفَّتها وعذوبتها ، وتأتي بعدَها في الاستعمال الألفاظُ الرباعية الأصول، أمّا الألفاظُ الخماسية الأصـــول فلم يردْ منها شيء في القرآن الكريم ؛ لأنَّ هذا ما لا عذوبةَ فيه ولا سهولة ، إلاّ ما كانَ من اســـم عرب ، ولم يكنْ في الأصل عربيًّا ، كإبراهيم وإسماعيل وطالوت وجالوت ، ونحوها ، وقد تخلَّله المدّ ، فتخرج الكلمةُ وكأنها كلمتان ، وليس معنى هذا أنَّ كلَّ ألفاظِ القرآن الكريم قصيرة ، فقد وردتْ في القـــرآنِ ألفاظٌ هي أطول الكلام عـــددَ حروفٍ ومقاطع ، مما يكون مستثقلًا بطبيعة وضعِه أو تركيبه ؛ ولكنها قد خرجتْ في نظم القرآن مخرجًا سهلًا، فكانتْ من أحضرِ الألفاظِ حلاوة ، وأعذبِها منطقًا ، وأخفّها تركيبًا ، إذْ تراه قد هيأ لها أسبابًا عجيبة من تكرارِ الحروف وتنـــوُّع الحركات ، فلم يجْرها فى نظمةٍ إلا وقد وجد ذلكَ فيها، كقوله – تعالى - : (**لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ**) ، والناظرُ إلى كلمة (**لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ**) يجد أنَّها على الرغـــم من أنها تكوَّنتْ من عشَـــرة أحرف ، إلا إنَّ عذوبتها جاءتْ من تنـــوُّع مخارج الحروف ، ومِن نظم حركاتها ، فإنَّها بذلك صارتْ في النطق كأنها أربعُ كلمات ، إذ تنطقُ على أربعةِ مقاطع ، وكذلك قوله – تعالى - : (**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ**) ، فإنَّ لفظة " **فَسَيَكْفِيكَهُمُ** " جاءتْ من تسعةِ أحرف ، وهي ثلاثة مقاطع، وقد تكرَّرت فيها الياءُ والكاف، وتوسط بين الكافيْن هذا المدّ الذي هو سرٌّ في الكلمة كلها.

وهكذا ترى أنَّ القرآن الكريم حين يستخدم الألفاظَ الطويلة يمهدُ لها بما يتلاءم معها من الألفاظ ، أو الحركات والسكنات، أو تقسيمها إلى مقاطع، وبذلك يوجِد لها وضعًا ملائمًا لطولها، ويهيئ لها جوًّا متناسقًا مع ضخامتها، لتجري على اللسان في يُسر وسهولة.

والثقلُ المعيب في الألفاظ له أشكالٌ وصور عدَّة، نذكرُ منها: ما كان مترتبًا على تغافرِ الحروف، ويفضي إلى تعسُّر اللسان في النطقِ باللفظ، ونفرةِ الأسماع منه، ونبْوِ الذوق عنه، كما في الأمثلةِ التي ضربوها لذلك، ومنها: الهعخع، ومثعنجر، ومستشزرات ، وغيرها.

أمّا اللفظُ الذي يوجد فيه قـــدرٌ هيّن من الثقل , والذي لا يؤدّي إلى تعسُّـــر في النطقِ به ، بل هو لا يخلُّ بفصاحته ، بل يضاعفُ من حُسنه ، ويزيد من بهائه ، ويقوّي من شأنِه في الأسلوب ، وهوَ في ذات الوقت يضفي عليه قـــوةً وفخامة يحتاجُها المقام ، فهذا اللفظُ فصيح ، وهذا الثقلُ الفصيح ، أو ضخامةُ اللفظ التي تضفي على التعبيرِ قـــوّةً وجزالة يقتضيها المقام ، قد نحسُّها في بعضِ الألفاظ القرآنية ، وإذا أنعمْنا النظـــرَ في هذه الألفاظ رأيناها بضخامتها هذه تصـــورُ الموقفَ الذي وردتْ فيه أدقَّ

تصوير ، ولا يمكنُ لغيرها من الألفاظِ أن يقوم مقامها ، وبذلك يتحقَّق لنا أن الصورةَ التي جاءت عليها هي المطلوبةُ للمقام ، وأن هذا القدرَ من الثقل أو الضَّخامة هو أسُّ جمالها، وســـرُّ رونقها، وهو الذي ينطوي على المعاني، ويوحي بالمراد ، ومن الشَّواهد الدالة على ذلك:

1- تقـــرأ قولَه - تعالى - : (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ**) فتحسُّ فـــي كلمة (**اثَّاقَلْتُمْ**) بشيء ما من الثقل أو الضخامة، ولكنه ثقلٌ فصيح لا يـــؤدّي إلى تعسُّـــر في النطق بها ، وتجد هذه الكلمةَ بما فيها من ضخامة تصورُ تقاعسَهم وتثاقلهمعن الجهادِ في عام العسْرة أدقَّ تصوير.

إن الأذنَ حين تسمع هذه اللفظةَ يتصور الخيالُ ذلك الجسمَ المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد ، فيسقطُ من أيديهم في ثقل... ، ولو أنك قلتَ تثاقلتم لخفَّ الجرْس، ولضاعَ الأثرُ المنشود، ولتوارتِ الصورة المطلوبةُ التي رسمها هذا اللفظ، واستقلَّ برسْمها.

2ـ وتقف أمـــامَ كلمة (**أَعْهَدْ**) في قوله – تعالى - : (**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**) ، فتحسُّ فيها بقـــوّةِ العهد وخامتِه ، بناءً على الصورة التي يجسِّدها لفظُ "أعهد"، بحروفِه الحلقيَّة المجهورة ، والمقامُ يحتاج إلى ذلك ؛ حيث ينفرد المجرمون بمصيرٍ خاصٍّ بهم يومَ القيامة ، ويقرِّرون فيه بالعهدِ العظيم الذي أخذه اللهُ على بني آدم بعبادته وحدَه لا شريكَ له ، ونبذ عبادةِ الشيطان، توبيخًا وتقريعًا لهم على مخالفتهم هذا العهدَ المؤكد، والمتأملُ بعينِ البصيرة اللغوية سيجدُ أنه لا يمكنُ للفظ آخـــرَ أنْ يصور ضخامةَ العهد وخامته سوى لفظ الآية، وعلى الرَّغم من زعـــم الزوزني أنَّ في كلمة (**أَعْهَـــدْ**) ثقلًا قريبًا من التناهي، لقُرب مخرج الهمزة والعين والهاء ؛ فإنَّ هذا الزعمَ باطلٌ ؛ لأنَّ الكلمة خفيفةٌ على اللسان, ولا يجدُ الناطقُ أيَّ لون من الصعوبةِ في النطق بها، وما فيها من بعضِ الثقل الناشئ من قـــوةِ حروفها وشدَّتها- والذي صنعَ اللبسَ عند الزوزني- هو سرُّ قوتها وفخامتِها، ومبعث إشعارها بقوةِ العهد وضخامته، والكلمةُ بعدَ هـــذا مقسَّمة إلى مقْطعين ، وهذا قد أزاح ثقلَها، وذلَّل ما فيها من صعوبة.

إنَّ قربَ مخارج الحروف أو بُعدَها ليس هو الفيصلَ في الحكم على اللفظِ بالثقل والتنافر، إنما الفيصلُ في ذلك هو الذوقُ الصحيح ، والطبعُ السليم ؛ فقد تتركب الكلمتانِ من حروفٍ واحدة متباعدةِ المخارج ، وتكون إحداهما خفيفةً والأخـــرى ثقيلة، مثل : علم، وملع ، فحروفُهما واحدة ، بعيدة المخارج ، والأولى منهما خفيفة على اللسان، ولا

ينْبو عنها الذوق ، والثانية ثقيلةٌ على اللسان، كريهةٌ في السمع، يرفضُها الذوق ، ويأنفُ منها الطبع، وقد تتركبُ الكلمةُ من حروفٍ متقاربة المخرج ، وتبدو خفيفة لا ثقلَ فيها ، مثل : ذقتُـــه بفمي ، فالباء والفاءُ والميم أحرفٌ شفهية متقاربةُ المخرج ، ومعَ هذا لا يحسُّ الناطقُ ثقلًا فيها.

3- وتأتي إلى قوله - تعالى - : **(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)** ، فتشعرُ في نطـــقِ كلمة **(أَنُلْزِمُكُمُوهَا)** بشيءٍ ما من الجهدِ اللساني ، الذي يحكي صعوبةَ الإلزام بالآيات وهُم لها كارهون ، وبعدَ أن عميت عليهم بشدَّة ، وأخفيتْ عنهم بقـــوَّة ، وتحسُّ أنَّ كلمة **(أَنُلْزِمُكُمُوهَا)** تصوِّر جوَّ الإكـــراه بإدماجِ كلِّ هذه الضمائر في النطق ، وشدّ بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهونَ مع ما يكرهون، ويشدّون إليه وهُم منه نافرون، وبذلك تجدُ لبعضِ الثقل في هذه الكلمة أثرًا قويًّا في تصويرِ الموقف بدقة، وتتثبَّت من أنَّ هذا الثقل الهيّنَ هو المورِدُ لمعانيها الغزيرة، ولإيحاءاتها الكثيرة.

4- وتســـمعُ كلمـــة : **(يصْطَـــرِخُـــونَ)** في قوله – تعالى - : **(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)** ، فتحسُّ بفخامةٍ في حروفها وضخامةٍ في أصواتها، ويخيَّل إليك جرسُها الغليظ غلظَ الصراخ المختلط المتجاوب من كلِّ مكان ، المنبعث من حناجرَ مكتظةٍ بالأصوات الخشنة كما تلقى إليك ظلّ الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد مَن يهتمُّ به أو يلبّيه، وتلمح مِن وراء ذلك كله صورةَ ذلك العذاب الغليظ الذي هُم فيه يصْطرخون.

إنَّ الضخامة التي نحسُّها في حروف **(يصْطَـــرِخُـــونَ)** مبعثٌ لكثيرٍ من المعاني التي تشعر بها الكلمة ، وهي فخامةٌ لا استغناء عنها، ولا يمكن للفظٍ أخفّ منها أن يقوم مقامَها مؤديًا وظيفتها في التعبير.

ومما سبق- من الشّواهد القرآنية الأربعة- نقرِّر أن اللفظَ القرآني من حيث مادته عذبٌ سَلس مُعتدل في حروفه ، متلائمٌ في مخارجه، لا عسرَ فيه ولا صعوبة ، وما قد نشعرُ به في بعضِ الألفاظ مِن فخامة في النطقِ تحتاج إلى بعض الجهد ، إنما هو دليلُ الفصاحة، وأمارةُ الجزالة التي يقتضيها المقام، وتفتقرُ إليها الصورةُ التعبيرية.

المبحث الثاني ــ صورة اللفظُ القرآني:

صـــــورةُ اللفظ هي صيغتُه التي وردَ عليها ، وهيئتُه التي جاء فيها ، ومعلـــومٌ أن اللفظَ العربي له صـــــورٌ متعددة، وصيغٌ مختلفة ، فقد يكون اللفظ : اسمًا، والاســمُ

قد يكون جامدًا أو مشتقًّا ، والمشتقاتُ على أنواع ، كما أنَّ الاسم قد يكون مفردًا أو مثنى أو مجموعًا ، ولكل منها أنواعٌ وصـور، أو فعلًا : والفعل إما ماضٍ أو مضارع أو أمر، وكلٌّ منها له صورٌ متعددة وأشكال شتّى ، أو حرفًا.

ولما كان لكلِّ صيغة من الصيغ ، أو هيئةٍ من الهيئات معانٍ خاصة بها ، وإيحاءات مقصورةٌ عليها ، ودلالاتٌ لا توجَد في سواها؛ لزمَ ذلك أن يأتي اللفظُ القرآني في أقوى الصيغ أداءً للمعنى، ويبرزُ فى أقــدر الأشكال تصويرًا للموقف، ويرتدي أحسنَ الهيئات ملاءمةً للسياق مع الصحَّة والموافقة للمقاييس والمعايير اللُّغوية، واللفظُ الفصيح لا بدَّ أن تكون صيغتُه موافقةً للقياس اللغوي، وسائرةً على قواعد اللغة العربية، بحيث أنَّك لا تقع على خطأ في صياغتِه، ولا شذوذٍ في هيئته. ولقد جمعَ القرآنُ الكريم كثيرًا من الصيَغ ، وحوى عديدًا من الهيئات التي وردتْ في اللسان العربي . ولسنا هنا بصدَد حصر الصيَغ والهيئات الواردة في القرآن الكريم، ولكننا سنكتفي بضرب بعض الأمثلةِ للتدليل على ما ذكرناه، معَ الإشارة إلى ما توحي به الصيغةُ من معانٍ ولطائف. فالصيغُ المصدرية شائعةٌ في القرآن الكريم، ومِن ذلك:

1- قوله - تعالى - :(**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**) تجد كلمتي : (**لَا رَيْبَ**) و: (**هُــدًى**) ، وفي نفــي الرَّيب مع تنْكيره إشعارٌ بنفي جنس الرَّيب عنه ، فلا تحــومُ حوله شائبةٌ من شك. و(**هُــدًى**)، مصدرٌ على وزنٍ نادر في المصادر، لم يردْ منه إلا الهدى والتُّقى ، والسّرى، والبكي، بالقصر في لغة. وفي التعبيرِ به إشارةٌ إلى أنَّ الكتاب هو عينُ الهدى ، فمَن سار على نهجِه فقد لزمَ الهدى.

2- وقوله - تعالى - : (**إِنَّمَا الْمُشْــرِكُونَ نَجَسٌ**) تــرى كلمة (**نَجَسٌ**)، وقد وصفوا بها، وفى وصفَهم بالمصدر مبالغةً في وصفهم بالنَّجس، كأنهم عينُ النجاسة. وقد أكدَ ذلك بالقصر بــ **:** (**إِنَّمَا**) ، فصار المشركون مقصورين على هذا الوصفِ الشائن دون سواه.

3- وقولــــه - تعالى- : (**وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**) ، تجد كلمة (**تَكْلِيمًا**) ، وهي مصدرٌ مؤكِّد لعامله ، وسرُّ التعبير به رفع احتمال المجاز، وبيان أنَّ التكليم كان، وبغير واسطة، قال الفرّاء: العربُ تسمّي ما وصلَ إلى الإنسان كلامًا بأيِّ طريقٍ وصل ما لم يؤكَّد بالمصدر، فإذا أكد به لم يكنْ إلا حقيقة الكلام.

4- وقولــــه - تعالى - : (**قَالُــوا لَــوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ**) كلمة (**قِتَالًا**) ، وهي مصدرٌ وجاءَ نكرة ، وهذا القولُ حكايةً عن المنافقين الذين لم يذهبوا مع الرســول- صلى الله عليه وسلم - وجيشِه إلى غزوة أحد ، والتعبيرُ بالمصدر فيه إشارةٌ إلى

أنهم ينفون وصفَ القتال بالمرَّة عما حدثَ في هذه الغزوة ، فليس في مذهبهم قتال ، ولا يصحُّ أن يسمَّى قتالًا ، قال الزّمخشـــــري : يعنونَ بهذا القول أنَّ ما فيه المسلمون لخطأ رأيهم وزلَلهم عنِ الصواب، ليس بشيء ، ولا يُقال لمثله قتال ؛ إنما هو إلقاءٌ بالأنفُس إلى التهلكة ، وفي كثيرٍ من الأحيان يعبر القرآنُ الكريم بصيغتي المرَّة والهيئة ؛ وذلكَ لبيان التعدديةِ المقاصديةِ , وأنتَ تستطيعُ بيسرٍ أن تجد ذلك ، ففيما يخصُّ صيغة المرَّة تجد ذلكَ في قوله - تعالى - :(**وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**) ، فـ **: (نَفْحَـــةٌ)** اسمُ مـــــرَّة، وفي التعبير به مبالغاتٌ في بيانِ قلة العذاب ، من حيث مادته ؛ لأنَّ النفحَ هبوبُ رائحة الشيء ، ومن حيث صيغته ، لأنه بناءٌ يدلُّ على المرَّة ، ومن حيث تفكيره المخبِر بالقلَّة ، ومن حيث ذكر المسِّ قبله ، وبذلك صارتِ الكلمةُ مخبرةً عن أدنى شيء من العذاب.

وعـــنْ صيغة الهيئة تجدُ ذلك في قوله - تعالى - : (**صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)** ، فـ : (صِبْغَةَ) اســـمُ هيئة يبيِّن حالة الصبغ ، وعلماءُ البلاغة يُخرجـــون هذا اللفظَ على الاستعارة أو المشاكلة، وبيانُ ذلك كالآتي:

أولًا ـ على الاستعارة : يكون مستعارًا للفطرة والطبيعةِ التي خلقهم اللهُ عليها؛ لأنهم يتزيَّنون بها كما يتزين الثوبُ بصبغة، أو للهداية التي هداهم اللهُ بها، لذلك أو للإيمان الذي أظهره اللهُ عليهم كما يظهر أثرُ الصبغ على المصبوغ.

ثانيًا ـ على المشـــاكلة : يكون بمعنى تطهيرِ الله ، أي : طهَّر اللهُ قلوبنا بالإيمان، فعبَّر بالتطهير عن درنِ الشِّـــرك بالصَّبغ على سبيل المشاكلة التقديرية ، فإنَّ النصارى كانوا يغمسونَ أولادهم فى ماءٍ أصفرَ يسمى المعمودية، ويعتقدون أنه تطهيرٌ للمولود. فأطلقَ الصبغ على التطهير بالإيمان: المشاكلة

ثالثًا ـ يعبّـــر القـــرآنُ الكريم بالمشتقاتِ كثيرًا : فتـــرى اسمَ الفاعل في قوله - تعالى -: **(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ)** ، وهو يشيرُ إلى ثبوت صفتي غفران الذنب وقبول التوب لله سبحانَه وتعالى، ويدلُّ على استمرارها، وفي هذا بعثٌ للعباد على التوبة والاستغفار.

رابعًا ـ اسمُ فاعل : في قوله - تعالى - : (**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**)، فكلٌّ من « مهلك » و« معذب » اسمُ فاعل، وهو يشعرُ بيأسِ القائلين من استجابةِ الموعوظين، بناء على أنَّ هلاكهم وعذابهم ثابتٌ عند الله سبحانه وتعالى، ومتقرَّر، فهُم مهلَكون ومعذَّبون لا محالة.

وإذا حاولنا استعراضَ بعض الصيغِ الواردة في القرآن الكريم، فإننا نلمحُ ذلك فيما يلي:

ـ ترى صيغةَ المبالغة في قوله تعالى: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم

اهتدى) ، أي: كثير الغفران، عظيم المغفرة لمن سارَ في الطريق المستقيم فتاب، وآمن، وعمل صالحًا، واهتدى، ولما كانتْ هذه الأعمالُ عظيمةً كبيرةَ القدر، كان جزاؤها مغفرةً عظيمة من الله عزَّ وجل. وتراها في قوله تعالى: (وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولًا) ، فقد بولغ في وصفِه بالظالم والجهل حيثُ لم يرعَ الأمانة، ولم يقمْ بالمحافظة عليها.

ـ وترى اسمَ المفعول في قوله تعالى: (ذلك يوم مجموعٌ له الناس وذلك يومٌ مشهود) ، فمجموعٌ ومشهودٌ اسمَا مفعول، والتعبيرُ بهما يدلُّ على الثبوتِ والوقوع، ويفيد أنَّ هذا اليوم واقعٌ لا محالة، قال الزمخشري: فإنْ قلت: لأيِّ فائدةٍ أوثر اسم المفعول على فعله؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالةٍ على ثباتِ معنى الجمع لليوم، وأنه يومٌ لا بدَّ من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمْع الناس له، وأنه الموصوفُ بذلك صفةً لازمة، وهو أثبتُ أيضًا لإسناد الجمعِ إلى الناس، وأنهم لا ينفكّون عنه، ونظيرُه قولُ المتهدد: إنك لمنهوبٌ مالك، محروبٌ قومك، فيه مِن تمكُّن الوصفِ وثباته ما ليسَ في الفعل.

وأنتَ واجدٌ من المشتقات في كتابِ الله- عزَّ وجل- غيرَ ما ذكرناه كثيرًا غزيرًا، حيث تكثر صيغُ الأفعال في النظمِ القرآني، <u>ومِن ذلك:</u>

1- صيغةُ "فعل" في قوله تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين). والتعبيرُ بها في قوله: "نزّلنا" يدلُّ على أنه نزلَ على سبيل التَّدريج والتَّنجيم، وليس على دفعةٍ واحدة.

2- وصيغةُ "المفاعلة" في قوله تعالى: (إن الله يدافع عن الذين آمنوا) وفي التعبير بلفظِ "يدافع" مبالغةٌ في المدافعة عن المؤمنين، وصيغةُ "المفاعلة" هنا مُستعارة للمبالغة، أو مجازٌ عن لازمها لأنَّ مَن يغالب يجتهد كلَّ الاجتهاد.

3- وصيغةُ "الاستفعال" في قوله تعالى: (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) ، وفي التعبير بها دلالةٌ على أنهم يطلبونَ ذلك ولكنهم لا ينالونَ هذا المطلب، ولا يُجابون إليه.

4- وصيغةُ "الافتعال" في قوله تعالى: (والله يختصُّ برحمته مَن يشاء). وفي التعبير بها إشعارٌ بالاصطفاء للرَّحمة، وإشارة إلى الاختيارِ للفوز بفضل الله عزَّ وجل.

5- وصيغةُ البناء للمجهول، في قوله تعالى: (هـذه بضاعتنا ردَّت إلينا). قال أبو السعود: وصيغةُ البناء للمفعول للإيذان بكمالِ الإحسان، الناشئ عنْ كمال الإخفاءِ المفهوم مِن كمال غفْلتهم عنه، بحيث لم يشعروا به ولا بفاعله.

وغيرُ ذلك من الصِّيغ المتعدِّدة، الموحية بالمعاني الجليلة، والمشتملة على الأسرارِ البديعة.

ويجبُ أن نقرِّر أنَّ ما ذكرناه لا يعدُّ إلا أنْ يكون رشفةً من منهلٍ عذْب فيّاض، وقصدنا بذكره التدليلَ على اشتمالِ القرآن الكريم على معظم الصيَغ والهيئات التي وردتْ في اللسان العربي. مع صحةِ الصياغة، ودقَّة الوضع، وحُسن الدلالة. وغزارة المعاني.

المبحث الثالث ـ دلالة اللفظُ القرآني:

يشترطُ البلاغيون في اللفظِ الفصيح أنْ يكون واضحَ الدلالة على المعنى المراد، لا غرابةَ فيه ولا وحشيَّة، وأن يكون رفيعًا بعيدًا عن ألفاظ العامَّة، لا ابتذالَ فيه ولا سوقيَّة.

وللَّفظِ دلالتان: دلالةٌ وضعيّة، هي معناه الذي وضعَ له في اللغة، ودلالةٌ عقلية وهي التي تفهَم من معناه اللغوي مع سياق الكلام، والأحوالِ والقرائن.

والبلاغيون يسمّون الدلالة الأولى: المعنى الأول، ويسمّون الثانية: المعنى الثانى، أو يُطلقون على الأولى: المعنى، وعلى الثانية.. معنى المعنى.

وقد بيَّن الإمامُ عبد القاهر ذلك فقال: الكلامُ على ضربيْن: ضربٍ تصلُ منه إلى الغرضُ بدلالة اللفظِ وحده، وذلك إذا قصدتَّ أن تخبرَ عنْ "زيد"، مثلًا بالخروج على الحقيقة فقلت: خرج زيد، وضربٍ آخر لا تصل منه إلى الغرضِ بدلالةِ اللفظ وحدَه، ولكنْ يدُلُّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعُه في اللغة، ثمَّ تجد لذلك المعنى دلالةً ثانية تصل بها إلى الغرض.

فإذا قلت: هو كثيرُ رمادِ القِدْر، أو قلتَ في المرأة هي نؤوم الضُّحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيدُ غرضَك الذي تعني من مجرَّد اللفظ، ولكن يدلُّ اللفظُ على معناه الذي يوجبُه ظاهره، ثمَّ يعقل السامعُ من ذلك المعنى على سبيلِ الاستدلال معنى آخرَ هو غرضُك، كمعرفتك من كثيرِ رماد القِدْر أنه مِضْياف، ومِن طويل النِّجاد أنه طويلُ القامة، ومِن نؤوم الضحى أنها مُترفة مَخدومة لها مَن يكفيها أمرَها.... وإذ قد عرفتَ هذه الجملة، فهنا عبارةٌ مختصرة وهي أنْ تقول: المعنى، ومعنى المعنى، ونعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقلَ من اللفظ معنى، ثمَّ يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، كالذي فسَّرت لك.

وإذا تأملنا ألفاظَ القرآن الكريم وجدناها واضحةَ الدلالةِ على معانيها، بيِّنة لا لبسَ ولا خفاء ولا غموضَ فيها، ليستْ بالغريب الوحشي، ولا بالساقط السوقي، يقرؤها العامَّة والخاصة فلا يشعرونَ فيها بغرابة، ولا يحسّون فيها بوحشيَّة.

قال ابنُ الأثير فى وصفِ فاتحة الكتاب: وإذا نظرنا إلى ما اشتملتْ عليه من الألفاظِ وجدناها سهلةً قريبةَ المآخذ. يفهمها كلُّ أحدٍ حتى صبيان المكاتب، وعوامّ السوقة، وإن

لم يفهموا ما تحتها من أسرارِ الفصاحة والبلاغة فإنَّ أحسنَ الكلام ما عَرف الخاصَّة فضلَه، وفهم العامَّة معناه.

ويسري وصفُ "ابن الأثير" على معظمِ آيات الكتاب الكريم، وصدق اللهُ العظيم القائل: (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر).

ويجب أن نقرِّر أنَّ ما جمعه علماءُ اللغة من ألفاظ أطلقوا عليها "غريب القرآن"، وقاموا بشرحها، ليس غريبًا بالمعنى الذي يخلُّ بالفصاحة عند البلاغيين، وهُم لا يعنونَ بهذه التسمية ذلك المعنى الذي تنزَّهت عنه ألفاظُ الكتاب الكريم.

فهذا الذي يطلقون عليه "الغريب" ألفاظٌ قد برئتْ من الثقل على اللسان، وسلمتْ من الكراهة في السَّمع. وبعدتْ عنِ الوحشية والغرابة، وقد كانت واضحةً للعرب الذين نزل فيهم القرآنُ الكريم وتحدّاهم، ولكنها من الألفاظِ العالية الرفيعة، التي قلَّ دورانُها على الألسنة، وارتفعت عنِ المستوى الشائع.

وهذا ما يجعلها تحتاج إلى تدبرٍ وإعمال فكر، حتى تعلم معانيها، وتدرك مَراميها، ولم يقلْ أحد ولا يسوغ له أنْ يقول شيئًا ينقص من فصاحة مثلِ هذه الألفاظ.

ومِن بلاغة الأسلوب أن يشتملَ على السَّهل والجزل، والجليِّ الظاهرِ والخفي الذي يحتاج إلى إيضاح، كلُّ ذلك على حسبِ ما تقتضيه الأحوال، وما تتطلبه المقامات.

هذه الكلماتُ التي يسمّونها بالغريب كلماتٌ قوية جزلة، يُحتاج في معرفة معانيها إلى نظر، ولكنها ليستْ بالمستغلقة، ولا بالمستعصية على الأفهام، وهي تتلاءم مع المقام خيرَ تلاؤم، وتتناسبُ مع الأحوال تمامَ التناسب، فهي في موْضعها لا يمكن الاستغناءُ عنها، ولا يتسنى لغيرها أن يقوم مقامَها مؤديًا وظيفتها التعبيرية في الأسلوب.

وإذا أخذنا مثلًا من هذا الغريب ككلمة "ضيزى" بمعنى: جائرة، في قوله تعالى: (تلك إذن قسمة ضيزى) ، نجد أنَّ هذه الكلمة ضروريةٌ في موقعها، ولا يمكنُ لغيرها أن يقومَ مقامها مؤديًا ما تؤدّيه من معان، وما توحي به من أسرار.

قال الرافعي: وحسنُ هذه الكلمة في نظمِ الكلام من أغربِ الحسن وأعجبه، ولو أدرتَّ اللغة عليها ما صلحَ لهذا الموضع غيرها فإنَّ السورة التي هي منها وهي سورة النجم، مفصّلة كلها على الياء، فجاءتِ الكلمة فاصلةً من الفواصل، ثمَّ هي في معرض الإنكار عنِ العرب؛ إذ وردتْ في ذكر الأصنام، وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكةَ والأصنام بناتِ الله مع وأدِهم البنات، فقال تعالى. (ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذن قسمة ضيزى) فكانتْ غرابةُ اللفظة أشدَّ الأشياء ملاءمةً لغرابةِ هذه القسمة التى أنكرها، وكانتِ الجملة كلُّها كأنها تصورُ في هيئة النطق بها الإنكارَ في الأولى، والتهكمَ

في الأخرى، وكان هذا التصويرُ أبلغَ ما في البلاغة، وخاصَّة في اللفظةِ الغريبة التي تمكَّنت في موضِعها من الفصل، ووصفتْ حالة المتهكم في إنكاره مِن إمالة اليدِ والرأس بهذيْن المدَّين فيها إلى أسفل والأعلى، وجمعتْ إلى كلُّ ذلك غرابةَ الإفكار بغرابتها اللفظية.

وإن تعجبْ فعجبٌ نظمُ هذه الكلمة الغريبة، وائتلافه على ما قبلها إذْ هي مقطعان: أحدُهما مدٌّ ثقيل، والآخر مدٌّ خفيف، وقد جاءتْ عقب غُنَّتين في "إذن"، و"قسمة"، وإحداهما خفيفة حادّة، والأخرى ثقيلة متفشِّية، فكأنها بذلك ليست إلا مجاوبةً صوتية لتقطيعٍ موسيقي، وهذا معنى رابعٌ للثلاثة التي عددناها آنفًا.

أما خامسُ هذه المعاني فهو أن الكلمة التي جمعتِ المعاني الأربعة على غرابتها، إنما هي أربعة أحرف أيضًا.

فبيَّن الرافعيُّ أهميةَ هذه الكلمة للمقام وقوتها في أداء المعنى بيانًا شافيًا, ففيها محافظةٌ على الفواصل التي وردت في السورة كلِّها على نمطٍ واحد.

وفيها غرابةٌ تتلاءم معَ غرابة قسمتهم الظالمة الجائرة.

وفيها تصويرٌ بجرْسها وطريقة نطقها وغرابتها، لحالةِ الإنكار عليهم، والتهكم والسخرية بهم.

وقد مكَّن لها النظمُ القرآني بما سبقها من مقاطعَ وحركاتٍ وسكنات فجاءت متجاوبةً مع سائر النَّظم، ومتلائمةً معه. ثمَّ هي على أربعة أحرفٍ فهي من الكلماتِ المعتدلة في حروفها، وليس فيها تنافر، أو صعوبة في النطق.

ومن الجديرِ بالذكر هنا أنَّه كانت لابن الأثير وقفةٌ مع هذه الكلمة أبطلَ فيها اعتراضَ متفلسفٍ عليها، وبيَّن أنها لا يسدُّ غيرُها مسدَّها، وأنها مرتبطةٌ بسائر النَّظم في السورة، ومتجاوبة معه.

الدلالة الدقيقةُ:

إنَّ نظرةً مُتأنية متأملةً لدلالة اللفظ القرآني نجده دقيقًا في دلالته على المقصودِ يصيب من المعنى المحز، ويقع منه في الصَّميم، ويؤدّي الغرضُ أداء كاملًا دقيقًا، من غير لبسٍ أو تعْمية. ولقد حرصَ القرآنُ الكريم على هذا المعنى على مدارِ آياته وألفاظه, وكيف لا يكون اللفظُ القرآني كذلك! والقرآنُ هو الداعي إلى عدمِ استخدام لفظ مكانَ آخر، حتى لا تحجبَ الحقائق، ومن شواهدِ ذلك:

- قوله تعالى: (قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم).

فهو لا يرى التهاونَ في استعمال اللفظ، ولكنه يرى التدقيقَ فيه ليدلَّ على الحقيقة من غير لبسٍ ولا تمويه.

- ولما كانت كلمةُ "راعنا"، لها معنى في العبريةِ مذمومٌ نهى المؤمنينَ عن مخاطبة الرسول بها، فقال: (يأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) ، فالقرآن شديدُ الدقةِ فيما يختارُ من لفظ يؤدّي به المعنى.
- وحين يعبرُ القرآنُ الكريم عن العدلِ الإلهي فيقول: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلًا).

ويقول: (ومَن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرًا).

ويعبرُ عن الملكيةِ المطلقة لله- عزَّ وجل، وعدمِ ملكية الشركاء الذين يدعونهم من دون الله لشيء ما، فيقول: (ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير). فاختار ألفاظَ الفتيل والنقير والقطمير، وهي ألفاظٌ دلَّت على المعنى بدقَّة، وأدَّته أحسنَ الأداء فهي أقلُّ الأشياء وأحقرُها في نظر العرب، وهي التي تقع تحتَ حسِّهم ويشاهدونها في بيئتهم. قال ابنُ السكّيت: القطميرُ: القشرةُ الرقيقة على النَّواة، والفتيلُ: ما كان في شقِّ النواة، والنقيرُ: النكتةُ فى ظهر النواة.

قال أبو منصور: وهذه الأشياءُ تُضرَب كلُّها أمثالًا للشيء التافهِ الحقير القليل.

وعنْ دقةِ الدلالة اللفظية نجدِ أنَّ القرآنَ الكريم يعرض- مثلًا- لحديث الإفك، ويبدؤه بوصفِ الذين اقترفوه، (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم) وترى في هذا الوصفِ دقةَ الألفاظ في دلالتها على المراد.

فهذا الإفكُ قد اختلقَه المنافقون من عندِ أنفسهم، وأطلقوه من وحي أهوائهم الخبيثة، وقد دلَّ على ذلك لفظُ "جاءوا" أدقَّ دلالةً، وحدَّد لفظ "الإفك" بمجرد النطق به ماهيةَ هذا الذي جاءوا به؛ ألا وهو الافتراء والبهتان والإفك، ودلَّ لفظُ "عصبة" على ما بيْن المنافقين من تعصُّب لما يروِّجون، وتحمّس لما يقولون، بناء على العصبية والحمية، ودون أدنى قدرٍ من تفكُّر، أو أثارةٍ من تدبُّر. وبين لفظِ "منكم" معرفة المخاطبين بحقيقة هؤلاء المنافقين، ووقوفهم على خبثِ طويَّتهم، ومِن ثمَّ فعليهم أنْ يعلموا أنَّ ما قالوه هو الإفكُ المبين. وبذلك عبرتِ الألفاظُ عن المقصودِ خيرَ تعبير، ودلتْ عليه دلالةً دقيقة محدَّدة.

ومن الأدلةِ على دقةِ دلالة الألفاظ القرآنية، مراعاةُ ما بينَ الألفاظ من فروقٍ دقيقة، وإيثار لفظٍ منها على غيره.

مثالُ ذلك:

1- أننا نجدُ لفظَ "يعلمون" في الأمور التي مرجعُ الفصل فيها إلى العقل، كما في قوله تعالى: (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) وقوله تعالى: (ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون). وقوله تعالى (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) وغيرُ ذلك من الآيات الكريمة.

2- ونرى لفظَ "يشعرون"، فس الأمور التي يكون للحواسِّ مدخلٌ فيها، كما في قوله تعالى: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) وقوله تعالى: (قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنَّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) وقوله تعالى: (وقالت لأخته قصّيه فبصُرت به عن جُنبٍ وهم لا يشعرون). وغيرُ ذلك من الآيات الكريمة.

3- وتجد لفظَ "الرؤيا" في حديث القرآن الكريم عنِ الرؤيا الصادقة، ويأتي مفرَدًا دائمًا للإشعارِ بالتمييز والوضوحِ والصفاء، كما في قوله تعالى (وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) ، وقوله تعالى: (يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك) وغيرُ ذلك من الآيات الكريمة.

4- ونرى لفظَ "الأحلام" في الأضغاثِ المشوّشة والهواجس المختلطة، وقد جاء ذلك فى ثلاثة مواضع، ولم يأتِ فيها إلا مجموعًا، دلالةً على الخلط والتشويش، وهي قوله تعالى: (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) ، وقوله تعالى: (قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين).

5- كما نجد مادةَ الخلط مُستعمَلة في القرآن الكريم في المخلوطِ الذي يمكن تمييزُ عناصره ومكوناته.

كما في قوله تعالى: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض) ، وقوله تعالى: (خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا) فإذا أريدَ الدلالةَ على شدةِ امتزاج عناصر المخلوط بحيث لا يمكن تمييزُها جاء لفظُ "الشوب"، كما في قوله تعالى: (ثم إن لهم عليها لشوبًا من حميم) والشوبُ: خلطُ السوائل ببعضها، فلا يتميز منها سائلٌ عن آخر.

وغيرُ ذلك من الأمثلة التي يطول ذكرُها، وهي تدلُّ على دقةِ دلالة اللفظِ القرآني، وملاحظة ما بينَ الألفاظ من فروق، وإيثار المناسب منها للمقام.

الإيحاء الغزير:

إلى جانبِ الدلالة الدقيقة للَّفظ القرآني- والتي استعرضْنا بعضًا من الشَّواهد الدالَّة

عليها- نراه غزيرَ الإيحاءات، وفيرَ المعاني، يمتدُّ شعاعُه إلى آفاقٍ عريضة، ويحصلُ منه المتلقّي على معطياتٍ كثيرة.

وغزارةُ الإيحاء هذه تؤكد بما لا يدعُ مجالًا للشَّك أنَّ القرآن الكريم حمّال أوْجه؛ حيث اللفظّ الواحد يوحي بالمعنى ونقيضِه في ذاتِ الوقت حسبَ المراد الإلهي منه في سياقه الواردِ به، مثالُ ذلك:

1- حين تقرأ قوله تعالى: (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور). تجد الألفاظَ مشعَّة موحِية، تغني العقلَ بمعانيها، وتمتِّع العاطفةَ بحرارتها، إلا إنَّ لفظَ "أذقنا" حين يوحي بقلَّة الجزءِ الممنوح للإنسان من هذه الرحمة؛ حيث الإذاقة تتمُّ بأقلِّ القليل، ولكنْ على الرغم من قلةِ هذا الجزء إلا أنه تشتدُّ مخالطتُه للإنسان حتى يسري في جسمه، ويحسُّ به عن طريقِ الذوق، ويجدّ له لذةً بالغة، وحلاوة عظيمة، وينعمُ به وهو يسبغُ عليه الأمنَ والطمأنينة، ويفتح له أبوابَ البركات، ويغلق دونَه أبوابَ المعضلات.

كذلك في لفظِ "نزعناها" إشارةٌ إلى مدى تعلقِ الإنسان بهذه الرحمة، وشدَّة التصاقه بها حتى كأنها صارتْ جزءًا منه غيرَ قابل للرَّد، ولكنَّ الله القوي القاهر ينزعها منه، وكأنها لم تكنْ موجودةً في الأصل، ومن الأساس، ناهيكَ عما تركه النزعُ من إحساسٍ بالألم، وشعورٍ بالعذاب، ومِن ثم وصفَ هذا الإنسان بأنه "يؤوس كفور"، فدلَّ هذا الوصفُ أقوى دلالةٍ على حالة اليأسِ التي اعترتْ هذا الإنسان، وما صاحبها من كفرانٍ لنعم الله عزَّ وجل، ونسيانٍ لفضائله، وجحودٍ لآلائه.

2- وتقرأ قوله تعالى: (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قومًا آخرين) فتشعرُ من خلال الألفاظ بقسوةٌ العذاب الذي حلَّ بالظالمين، وشدَّته البالغة، وما أكثر هذه القرى الظالمة التي حطَّمها اللهُ عزَّ وجل، كما يُفهم من لفظ "كم". وفي قوله تعالى: (قصمنا) إشعارٌ بضراوة الإملاك، وشدةِ التحطيم والتهشيم، الذي أصابَ قرى الظالمين وأهلها مِن حيث إن لفظَ "قصم" في مبناه قوةٌ وضخامة بسببِ اجتماع القافِ الشديدة المستعلية، مع الصادِ المطبقة المسْتعلية، وفي معناه مبالغةٌ في الكسر والتحطيم ؛ لأنَّ القصم: كسرُ الشيء حتى يبين، وتتناثر أجزاؤه، ودلَّ لفظ "أنشأنا" على سرعةِ إيجاد البديل، وإنشائه من لا شيء؛ لأنَّ في الإنشاء إحداثًا للشيء وتربيته.

3- وتقرأ قوله تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ، فتوحي إليك الألفاظُ بكل المعاني الرفيعة التي يجبُ أن تكتنفَ الحياة الزوجية، ففي لفظ "ولكم" مسارعةٌ إلى بيانِ خلق الزوجات ترجع فائدتُه إلى

الأزواج، ويعود نفعُه عليهم، وفي لفظ "أنفسكم" إشعارٌ بأنَّ الزوجة مخلوقةٌ من نفس الزوج، وليستْ غريبة عنه، فعليه أنْ يرعاها ويكرمها، ويحافظَ عليها كما يحافظ على نفسه، وفي لفظ "تسكنوا" نهرٌ يتدفَّق بالمعاني الفاضلة، من الراحة النفسية التي يحسُّها الإنسانّ حينما يأوي إلى زوجته بعدَ جهاده وعنائه في عمله، والراحةِ الجسمية بقضاءِ وطَره، وإعفافِ نفسه وزوجه، والأمن والطمأنينة عندما يجد نفسه محوطًا برعاية زوجته، مغشيًّا بحنانها. إنَّ لفظ "السكن" يوحي بهذا، وبأكثر من هذا مما لا يُستطاع التعبيرُ عنه بالمقال وإنما يفصحُ عنه الحال، وتترجم عنه المشاعر؛ وفي لفظي "مودة ورحمة" بيانٌ شافٍ لحقيقة العلاقة التي يجب أن تكون بين الزوج وزوجته، إنها علاقة أساسُها المودة، وعمادها الرحمة، وهاتان الكلمتان تضمان من القيم النبيلة، والمعاني السامية ما يقيم الحياةَ الزوجية الصالحة.

وعليه، فقد رأينا في الأمثلة التي ذكرناها غزارةَ المعاني المستنبطة من اللفظة القرآنية، وكثرةَ الإيحاءات المفهومة منها، ومثلها في ذلك كلُّ الألفاظ القرآنية، إذا تأملها الباحثُ وجدَ فيها المعاني الكبيرة، والأسرار المثيرة واللطائف البديعة.

تصويرية الدلالةُ:

ونعني بها أن يكون اللفظُ مصورًا المعناه الذي يدل عليه، بحيث يرى المتأملُ فيه صورةً شاخصة لدلالته، وفي القرآن الكريم كثيرٌ من الألفاظ التي تصور المعنى وتشخّصه، تارة بجرْسها الذي تلقيه في الأذن، وتارة بظلها الذي تلقيه في الخيال، وتارة بالجرس والخيال معًا. ومما يُعجز في عرض الصورة في المشهد القرآني أنها حية تتحرك أمامَ ناظريك رأي العين، وأنت واجدٌ ذلك حقيقة حين تقرأ:

1- قوله تعالى: (يوم تمور السماء مورًا وتسير الجبال سيرًا). فتجد في لفظي «تمور» و«تسير» تصويرًا دقيقًا لحركة السماء والجبال يوم القيامة: إن السماء تضطرب، وتتحرك، وتلفُّ وتدور بقوة وعنف، والجبال تسير سيرًا سريعًا، وكأنهما قد خلعت عليهما الحياة، فيتحركان هذه الحركات العنيفة دون توقف. في مشهدٍ الذي يتوقف فيه هو القلب وكأنه حقيقة!

2- وقوله تعالى: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) ، فترى الألفاظ وقد صورتْ لك المعنى في مشهد محسوس، وكأنه قد شخَصَ كلٌّ منهما في صورة صراعٍ بشري يستعلي فيه الحقُّ على الباطل فيرسل عليه قذيفة تنكسرُ لها دماغه، وتزهق روحه، ولا يبقى له وجود. إنَّ هذه الصورة الكلية قد ساهم في رسمها ألفاظ: "تقذف، وعلى، ويدمغ، وزاهق"، وكلُّ لفظ منها صور لنا صورةً جزئية، صورة

القذيفة، وصورة الدماغ المهشَّمة، وصورة الروح الزاهقة، وكلُّ ذلك تجمع وتركبَ في الصورة الكلية السابقة.

3- وقوله تعالى: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) فترى لفظ "انسلخ" وهو يرسم صورة عنيفة للتملصِ من هذه الآيات بعد أن كانت محيطة بالشخص إحاطةَ الجلد بالجسم. ناهيك عن الانسيابية في رسم الصورة بلفظ الانسلاخ، وما يمثله من أريحية في الفصْل المتباين بين الشيء والمنسلخ عنه.

4- وقوله تعالى: (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها) ، فتجد لفظ "دمدم" يصور لك ما نزل بهم من هلاك دمرهم تدميرًا، وأطبق عليهم، ولفظ.. "سواها" يصور لك شدَّة تدميرهم حتى صارت بلادهم مستوية بالأرض.

5- وقوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون) ، فتجد لفظ "الميتة" يصور خمودَ الأرض وخلوَّها من النبات، كذلك لفظ "أحييناها" يصور حركة الأرض بالنبات. وازدهار الحياة على وجهها.

وغيرُ ذلك من الأمثلة التي يضيق المقامُ عن ذكرها، وفي جميعها تجد اللفظةَ القرآنية تصور المعاني العقلية، وتبرزها في مشاهدَ محسوسة، وصور مفْعمة بالحياة والحركة.

ومما قدمناه في موضوع اللفظ من حيث دلالته نرى أن اللفظ القرآني:

* واضح في دلالته، لا غرابة فيه ولا ابتذال.
* دقيقٌ في معناه، لا تجاوز فيه ولا تمويه.
* غزيرٌ في إيحاءاته ومعطياته، يصور المعاني الذهنية، ويجسم اللطائف العقلية حيثما اقتضى المقام ذلك.

رابعًا - موقع اللفظُ القرآني:

من المقرر عندَ البلاغيين أنَّ اللفظة لا تظهر قيمتها التعبيرية، ولا تبدو فضيلتها على ما سواها؛ إلا من خلال التركيب الواقعة فيه. واللفظة في التركيب البليغِ يجب أن تتلاءم مع ما قبلها وما بعدها، وأنْ تتناسب مع سابقتها ولاحقتها حتى يستقيم النظم، ويؤدي الغرضَ المنوط به.

ولا نظم في الكلمة ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسببٍ من تلك... ولا تجد أحدًا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانَها من النظم، وحسنَ ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضلَ مؤانستها لأخواتها.

وحينما توصَف الكلمة بالتمكن فذلك يعني حسن ملائمتها لجاراتها، وحينما توصَف بالقلق والنبْو، فذلك يعني سوءَ التلاؤم، وأنها لم تصلح أن تكون قرينه لجاراتها. والكلمة

القرآنية متمكنة في موقعها أشدَّ تمكن، فهي متناسبة مع جاراتها، ومتلائمة مع سابقتها ولاحقتها، لا يصلح غيرها لموقعها، بل تكاد تجزم وأنت على يقينٍ أن.. حتى هذه اللفظ لا تصلح نفسُها لغير موقعها، حيث إنها متجانسةٌ مع كلِّ السياق، ومتناسقة مع جميع التركيب، قد استوفتْ جميعَ مقوِّمات الفصاحة، واكتملت فيها جميعُ الخصائص الفنية التي تجعلها تؤدي دلالتها أكمل أداء، بحيث تكون مع جاراتها نظمًا معجزًا يتحدَّى الفصحاء والبلغاء.

وكما تعودنا فإنَّ الشواهدَ القرآنية تؤكد المعنى وتوضِّحه، ومِن ذلك:

أ ـ حين تقرأ قولَه تعالى: (قالوا تالله تفتؤ تذكر يوسف حتى تكون حرضًا أو تكون من الهالكين) ، فتجد الألفاظ يلائمُ بعضها بعضًا، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها، فإنه سبحانه لما أتى بأغربِ ألفاظِ القسَم بالنسبة إلى أخواتها وهي التاء فإنها أقلُّ استعمالًا، وأبعدُ من أفهام العامة، أتى سبحانه بأغرب الأفعال التي ترفع الأسماء, وتنصبُ الأخبار بالنِّسبة إلى أخواتها، فإنَّ "كان" وما قاربها أعرفُ عند الكافة من (تفتأ). وأتى سبحانه بأغربِ ألفاظ الهلاك وهو "حَرضًا"، فهذه اللفظة أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك، فاقتضى حسنُ الوضع في النظم أن تجاورَ كلُّ لفظة بلفظةٍ من جنسها في الغرابة أو الاستعمال، توخِّيًا لحسن الجوار، ورغبةً في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادلَ الألفاظُ في الوضع، وتتناسبَ في النظم.

ب ـ وحين تقرأ قولَه تعالى: (إنَّ لك ألا تجوع فيها ولا تعْرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) ، فتجد تلاؤمًا قويًّا بين الألفاظ، وربما يخفى هذا على قصِارِ النظر، فيقولون: كان الأنسبُ أن يقرنَ الظمأ بالجوع، والضحى بالعري، ولكنَّ المتأمل يجد أنَّ النظم القرآني أشد تلاؤمًا وأقوى تناسبًا حيث قرن الجوعَ بالعري لما للإنسان فيهما من مزيدِ المشقةِ وعظيمِ الألم بملابستهما، وقرنَ الاستظلالَ بالرّي لما في ذلك من مزية الامتنانِ وإكماله، كما أنَّ الجوع يلحق منه ألمٌ في باطن الإنسان, وتلتهب منه أحشاؤه، والعري يلحق منه ألمٌ في ظاهر جسدِ الإنسان، فلهذا جمعَ بينهما لما كان أحدُهما يتعلق بالظاهر, والآخرُ يتعلق بالباطن، والظمأ يحرق الكبد. ويوقدُ فى الفؤاد النار، والضحا يحرق الجسدَ الظاهر، فلأجْل هذا ضمَّ كلَّ واحدٍ منهما إلى ما له به تعلق لتحصلَ المناسبة.

ج ـ كذلك حين تتأمَّل قوله تعالى: (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدًا للقوم الظالمين).

فترى التلاؤم قويًّا بين الألفاظ، كما تجد التناسبَ شديدًا بين الجمل. ومن قديمٍ وقفَ الإمامُ عبد القاهر أمام هذه الآية مبينًا ما بينَ ألفاظها من ارتباطٍ وتلاؤم، وأنَّ هذا أساس

مزيتها، وسببُ فضيلتها وقال: إن شككتَ في هذا فتأمَّل: هل ترى لفظةً منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت؛ لأدَّت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها مِن الآية؟ قل: "إبلعي"، واعتبرها وحدَها من غير أن تنظرَ إلى ما قبلها وما بعدها. وكذلك فاعتبر سائرَ ما يليها.

وكيف بالشَّك في ذلك! ومعلوم أنَّ مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثمَّ أمرت، ثمَّ إن كان النداء بـ"يا" دون أي، نحو: يأيتها الأرض، ثمَّ إضافة الماء إلى الكافِ دون أن يقال: إبلعي الماء، ثمَّ أن أتبع نداء الأرض وأمرها بما هو مِن شأنها، نداء السماء، وأمرَها كذلك بما يخصُّها، ثمَّ أنْ قيل: "وغيض الماء"، فجاء الفعلُ على صيغة "فعل"، الدالة على أنه لم يغضْ إلّا بأمْرِ آمر، وقدرةِ قادر، ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى: "وقضي الأمر"، ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور، وهو "واستوت على الجودي"، ثمَّ إضمار السفينة قبلَ الذكر، كما هو شرط الفخامة والدلالة على عظم الشَّأن، ثمَّ مقابلة "قيل" في الخاتمة بـ"قيل"، في الفاتحة! أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعةً، وتحضرك عندَ تصورها هيئةٌ تحيط بالنفس من أقطارها، تعلقًا باللفظ من حيث هو صوتٌ مسموع وحروفٌ تتوالى في النُّطق؟ أم كلُّ ذلك لما بين الألفاظ من الاتساق العجيب؟!

ويصل الإمامُ بعدَ هذا التحليل الدقيق إلى الحقيقة التي يريد توضيحها وتقريرها, فيقول: فقدِ اتضح إذًا اتضاحًا لا يدعُ للشَّك مجالًا أنَّ الألفاظَ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلةَ وخلافَها فى ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها, وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ.

وتختلف اللفظةُ القرآنية عن سالفتها اتساقًا وتلاؤمًا مع التي تليها، وتجد مثالًا لذلك في:

1- قوله تعالى: (عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين).

فقد عبَّر عنِ الفريق الأول بالموصول الذى صلته فعل دال على الحدوث، وعن الفريق الثاني باسم الفاعل المفيد للدوام؛ للإيذان بأنَّ ما ظهر من الأولين صدقٌ حادث في أمر خاص غير مصحّح لنظمهم في سلك الصادقين، وأنَّ ما صدَر عن الآخرين, وإن كان كذبًا حادثًا متعلقًا بأمر خاص، لكنه أمرٌ جار على عادتهم المستمرة, ناشئٌ عن رسوخِهم في الكذب، وعبّر عن الصدقِ بالتبيُّن, وعمّا يتعلق بالكذب بالعلم؛ لما هو المشهورُ من أنَّ مدلول الخبر هو الصدقُ, والكذب احتمالٌ عقلي، فظهور صدقه إنما هو تبيُّن ذلك المدلول وانقطاع احتمال نقيضه بعدما كان محتملًا له احتمالًا عقليًّا، وأمّا كذبه

فأمرٌ حادثٌ لا دلالة للخبر عليه في الجملة حتى يكون ظهوره تبيينًا له، بل هو نقيضٌ لمدلوله، فما يتعلق به يكون علمًا مستأنفًا.

2- وفي قوله تعالى: (وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) عبَّر بالحبوط في الأول، وبالبطلان في الثاني، فكان التلاؤم التام، وائتلاف اللفظ مع المعنى.

قال أبو السعود: ولأجل أنَّ الأولَ من شأنه استتباع الثواب والأجر، وأنَّ عدمَه لعدم مقارنته للإيمان والنية الصَّحيحة، وأنَّ الثاني ليس له جهة صالحة قط؛ علَّق بالأول الحبوط المؤذن بسقوط أجره بصيغة الفعل المنبئ عن الحدوث، وبالثاني البطلان، المفصح عنْ كونه بحيث لا طائلَ تحته أصلًا بالاسمية الدالة على كون ذلك وصفًا لازمًا له، ثابتًا فيه.

ومما يجدر الإشارةُ إليه- بل التأكيد عليه- أنَّ اللفظ القرآني يتغير، أو يتغير موقعه في الآيات المتشابهة، تناسبًا مع المقام، وائتلافًا مع المعنى، وفي هذا دليل على دقة موقع اللفظ القرآني، وأسوق هنا شاهديْن فقط للدلالة على ما أرمي إلى بيانه، وهما:

الأوَّل: قوله تعالى في سورة آل عمران: (قال رب أنَّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر) ، وقوله تعالى في سورة مريم: (قال رب أنَّى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرًا وقد بلغت من الكبر عتيًّا) فتغير موقع "امرأتي عاقر" في الآيتين، وجاء في آية مريم لفظ "عتيًّا"، وقد أدَّى هذا إلى التلاؤم التام بين الألفاظ، والتناسب بينَ الفواصل، والآية الأولى تسلك المسلكَ الطبعي، حيث بيَّن زكريا حالَ نفسه، ثمَّ حالَ امرأته، أما الآية الثانية، فقد تقدَّمها في السورة هذا الترتيبُ الطبعي في قوله تعالى: (قال ربّ إنّي وهنَ العظم منّي واشتعل الرأس شيبًا ولم أكنْ بدعائك ربِّ شقيًّا وإني خِفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا) ، فلما أعيدَ ذكر هذا جاء على نسقٍ آخر، وأخَّر فيه ذكرَ الكبر ليوافقَ "عتيًّا"، فاتَّحدت فواصلُ السورة في مجيئها على هذا النسق البديع الذي نجده في سورة مريم.

والثاني: قوله تعالى في سورة البقرة: (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدًا وادخلوا الباب سجدًا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين. فبدَّل الذين ظلموا قولًا غير الذين قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزًا من السماء بما كانوا يفسقون) وقوله تعالى في سورة الأعراف: (وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدًا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين. فبدل الذين ظلموا منهم قولًا غيرَ الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزًا من السماء بما كانوا يظلمون).

فهذه آياتٌ متشابهة، وقد وقع بعضُ الاختلاف في نظمها بزيادة لفظ، أو تقديم وتأخير، أو تغيير كلمة، وذلك ما يقتضيه المقام, ويؤدّي إلى تلاؤم الألفاظ مع جاراتها، ويحقق ائتلافَ الألفاظ مع المعاني.

ففي البقرة قيل "فكلوا"، وفي الأعراف قيل "وكلوا"، وذلك لأنَّ الأكل في الأولى مسبوق بـ"ادخلوا"، والدخول سريعُ الانقضاء فيتبعه الأكلُ على الفور، فكان العطف بالفاء، وفي الثانية مسبوقٌ بـ"اسكنوا" والمعنى أقيموا فيها، وذلك مُمتدّ، ووقته طويل، والأكلُ لا يتعلق وجودُه به، فكان العطف بالواو والمعنى فيه: اجمعوا بين الأكل والسُّكنى.

وفي البقرة جاء لفظ "رغدًا"، وذلك لأنه لما أسندَ القول في البقرة إلى الله- عزَّ وجلّ- ناسبَه بيانُ عظمة الإنعام وجَسامته ووفْرته، وإذا تقدَّم اسم المنعم الكريم اقتضى ذلك ذكرَ نعمتِه الكريمة، وفي الأعراف لم يسند الفعل إلى الذّات العلية فلم يذكرْ معه ما ذكر في البقرة.

وفي البقرة قدَّم قوله "وادخلوا الباب سجدًا" على قوله "وقولوا حطة"، على عكس ما في الأعراف؛ وذلك لأنَّ الأمرَ واردٌ في البقرة بدخول القرية، فناسبَ ذلك تقديم الأمر بدخول الباب سجدًا ليبيِّن لهم كيفية الدخول.

وفي البقرة قيل: "خطاياكم" بجمع التَّكسير المفيد للكثرة، وفي الأعراف قيل: "خطيئاتكم"، بجمع المؤنث السالم الدّال على القلة، وذلك لأنه لما أسندَ الفعل في البقرة إلى الله عزّ وجل، "وإذ قلنا ادخلوا" ناسبَ ذلك بيان سعة مغفرته، وشمول عفْوه، بالإتيان بصيغة الكثرة الدالة على عموم المغفرة، وكمال العفو.

وفي البقرة قيل "وسنزيد"، وفي الأعراف "سنزيد" بغير واو؛ لأنَّ اتصالها بما قبلها في سورة البقرة أشد، لاتِّفاق لفظها معَ لفظ "قلنا"، ولأنَّ قوله "اسكنوا" في الأعراف لا يصحُّ على رأيِ البصريين أن يكون مكان الفاعل، بينما يصحُّ أن يكون قوله "ادخلوا" في موضع المفعول، ومن هنا صار "اسكنوا" كأنه منفصل عن الفعل في الحكم، وإن كان متَّصلًا به في اللفظ، وجوابه قوله: "نغفر لكم"، والجواب في حكم الابتداء ينفصل كما يتصل، ولا دليل في اللفظِ على انفصاله إلّا بفصل ما أصلُه أن يكون متعلقًا به بحرف عطف، وهو "سنزيد المحسنين" بحذف الواو منه، واستئنافه خبرًا منفردًا.

وفي البقرة قيل: "فبدَّل الذين ظلموا قولًا"، وفي الأعراف: "فبدَّل الذين ظلموا منهم قولًا"، وذلك لأن أولَ القصَّة في الأعراف مبنيٌّ على التخصيص والتمييز, بدليل قوله تعالى قبل ذلك (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) ، فذكر أنَّ منهم مَن

يفعل ذلك ثم عدَّ صنوفَ إنعامه عليهم وأوامره لهم فلما انتهت، قال: "فبدل الذين ظلموا منهم قولًا", فأتى في آخرِ ما حكى عنهم من مقابلة نعمة الله عليهم بتبديلهم ما قدم به القول إليهم بلفظ "من"، التي هي التَّخصيص والتمييز بناء على أول القصة.

وفي البقرة قيل: "فأنزلنا على الذين ظلموا"، وفي الأعراف قيل: "فأرسلنا"، وذلك لأنَّ لفظ الرسول والرسالة كثرتْ في الأعراف فجاء ذلك وفقًا لما قبله، وتلاؤمًا مع ما سبقه.

ومِن هذا البيان المفصل لما بينَ الآيات المتشابهة من فروقٍ دقيقه ندرك أنَّ اللفظ القرآني شديد التلاؤم مع قبله وما بعدَه، قويُّ التآلف مع ما يجاوره من ألفاظ، وأنه فى موقعه شاهدٌ من شواهد الإعجاز القرآني، ودليلٌ من أدلة كوْنه من عند الله العليم، الحكيم... "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا".

الخاتمة

وبعدَ هذه المسيرة النورانية فى رحاب اللفظ القرآني، والتي بينّا فيها خصائصه وسماته، من حيث مادته، وهيئته، ودلالته، وموقعه؛ نقف لنقرر أنَّ اللفظَ القرآني معتدلٌ في مادته لا ثقلَ فيه ولا تنافر، جميلٌ في هيئته، قد جاء على أحسَن الصيغ وأقواها دلالة، تشعُّ المعاني من مادته وهيئته وموقعه، فهو كاملٌ في دلالته، غزيرٌ في إيحاءاته، يقع من النَّظم موقعًا دقيقًا لا يصلح لغيره، ولا يصلح غيره له.

واللفظُ القرآني كثيرُ الأسرار، غزيرُ المعانى، حاز أعلى المعايير البلاغية، وهو في حاجةٍ إلى دراسات تكشف أسرارَه، وتسبرُ أغواره، وتوضحُ مكانتَه في إعجاز القرآن الكريم. وآملُ أن يكون هذا البحثُ المتواضع قد أسهمَ في هذا المجال قدرَ الطاقة، واللهُ من وراءِ القصد، {وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب}

الهوامـــــــــــــش :

1- جلال الدين السيوطي (عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين، ت 911هـ): الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة المثنى، دار التراث، القاهرة، 121/2- 122.
2- سورة يوسف: آية ٢
3- سورة فصلت: آية ٤٤
4- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ): البيان والتبيين ، شرح وتحقيق : عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ط. 7 ، 1418هـ - 1988م، ١/ ١٤٤.
5- أبو هلال العسكري(الحسن بن عبد الله بن سهل ت 395هـ): كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1952، ص٣٩.
6- ابن سنان الخفاجي (أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي ت 466ه): سر الفصاحة، تحقيق: عبد المتعال الصعيدى، دار الكتب العلمية ، بيروت، 1402ه/1982م، ص٨٤ – ٨١.
7- ابن الأثير الجزري (أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، ت 673ه) : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، مصر، ٥٦ – ٧٤.
8- الخطيب القزويني (جلال الدين أبو عبدالله محمد بن سعدالدين بن عمر القزويني) : الإيضاح في علوم البلاغة، دار إحياء العلوم ، بيروت، الطبعة الرابعة، 1998، 21/1.
9- البناني: تقرير الشمس الإنبابي على شرح سعد الدين التفتازاني لتلخيص المفتاح للقزويني ومعه حاشية البناني المسماة بالتجريد، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، 1330هـ، 1/ ٢٠٩ .
10- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973، ص ٢٦٠؛ عبد العظيم المطعني: خصائص التعبير في القرآن، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، 1971، ص ١٩٨.
11- سورة النور: آية: ٥٥.
12- سورة البقرة: أية: ١٣٧
13- اعجاز القرآن: ٢٦٠
14- الهعخع: قيل إنه اسم شجر، والمثعنجر: السائل من الماء أو الدمع، ومستشزرات: أي: مرتفعات. انظر: عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز، القاهرة، 1985، 22/1, 23.
15- سورة التوبة. آية: ٣٨
16- محمد أبو موسى: خصائص التراكيب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط4، 1996، ص 33؛ سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، دار المعارف، القاهرة، 1963، ص 78.
17- سورة يس: آية: ٦٠، ٦١.
18- عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح ، 1/ 13.
19- ابن الأثير الجزري: المثل السائر،٦٠- ٦١؛ عبد المتعال الصعيدي: بغية الإيضاح ، 1/ 12.
20- سورة هود: آية: ٢٨
21- محمد أبو موسى: خصائص التراكيب،٣٤، سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٧٨.
22- سورة فاطر. آية: 36 : 37
23- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٧٩ .
24- سورة البقرة آية: ٢

25- شهاب الدين الخفاجي (أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي): عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب(، دار صادر، بيروت، د.ت، 1 / 196.
26- سورة التوبه: آية ٢٨
27- جار الله الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، ت 538هـ): الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. 3، 1407ه، 2 / 183.
28- سورة النساء آية: ١٦٤
29- أبو السعود العمادي (محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنبلي ت 982هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود)، تحقيق: عبد القادر عطا، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، 1985، 2 / 256.
30- سورة آل عمران: آية ١٦٧
31- جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ١ / ٤٧٨.
32- سورة الأنبياء: آية ٤٦
33- شهاب الدين الخفاجي : عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب(، ص ٢٥٧ .
34- سورة البقرة: آية ١٢٨
35- هي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته تحقيقا أو تقديرا، وهي هنا من النوع الثاني. ينظر الإيضاح 26/6.
36- جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، 1 / 316 ؛ شهاب الدين الخفاجي : عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب(، 2 / 247 .
37- سورة غافر آية ٣
38- سورة الأعراف آية ١٦٤
39- أبو السعود العمادي: إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود)، 3/ 285.
40- سورة طه: آية:82
41- سورة الأحزاب. آية:٧٢
42- سورة هود آية: 103
43- جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، 2 / 292.
44- سورة البقرة آية ٢٣
45- جار الله الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، 1 / 238
46- سورة الحج، آية: ٣٨
47- شهاب الدين الخفاجي : عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي (حاشية الشهاب(،6 / 299.
48- سورة الأعراف آية: ٣٤
49- سورة البقرة: آية: ١٠٥
50- سورة يوسف: آية: ٦٥
51- أبو السعود العمادي: إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود)، 4 / 290.
52- عبد القاهر الجرجاني (عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي أبو بكر ت 474هـ): دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت، ص ٢٦٢- ٢٦٣ .
53- ابن الأثير الجزري: المثل السائر، ص٦٢ .
54- سورة القمر آية: ١٧

55- أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص 90.
56- سورة النجم. آية: ٢٢
57- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن، ص٢٦١- ٢٦٢.
58- ابن الأثير الجزري: المثل السائر، ص 62 .
59- سورة الحجرات. آية: ١٤
60- سورة البقرة آية ١٠٤
61- أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص ٥٧- ٥٨ .
62- سورة النساء آية ٤٩
63- سورة النساء آية ١٢٥
64- سورة فاطر آية ١٣
65- ابن منظور (محمد بن مكرم الأنصاري، ت 711هـ): لسان العرب ، تحقيق: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة. مادة: فتل.
66- سورة النور آية ١١
67- سورة البقرة آية ٢٦
68- سورة يونس آية ٥٥
69- سورة النور آية ٢٥
70- سورة البقرة آية ١٥٤
71- سورة النمل آية ١٨
72- سورة القصص اية ١١
73- أحمد أحمد بدوي: من بلاغة القرآن، ص ٥٩ ؛ أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل ت 395هـ): الفروق في اللغة، تحقيق: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1999، ص٧٤ .
74- سورة الصافات آية ١٠٩
75- سورة يوسف آية 5
76- سورة الأنبياء آية 5
77- سورة يوسف آية ٤٤، عائشة بنت عبد الرحمن بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية، دار المعارف، القاهرة، ط3، 2004م، ص 198.
78- سورة يونس آية ٢٥.
79- سورة التوبة آيه ١٠٢.
80- سورة الصافات آية ٦٧.
81- عائشة بنت عبد الرحمن بنت الشاطئ: الإعجاز البياني للقرآن، ص ٣١٥.
82- سورة هود. آية: ٩
83- سورة الأنبياء. آية: ١١
84- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت 429هـ) : فقه اللغة وسر العربية ، تحقيق: سليمان سليم البواب ، دار الحكمة، ط. 2، 1409هـ - 1989م، ص 241.
85- الراغب الأصفهاني(أبو القاسم الحسين بن محمد ، ت 502هـ): المفردات في غريب القرآن ، تحقيق : صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، دمشق، 1412هـ ، ص 493.
86- سورة الروم. آية: 21.
87- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص ٧٨ .

88- سورة الطور. آية: ٩، ١٠
89- سورة الأنبياء. آية: ١٨
90- سورة الأعراف آية ١٧٥
91- سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ص٨١ .
92- سورة الشمس آية: ١٤
93- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ، ص ٢٥٢.
94- سورة يسن، آية: ٣٣
95- سورة يوسف. آية ٨٥.
96- ابن أبي الإصبع(ت 654هـ): بديع القرآن، تحقيق: حفني شرف، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 2003، ص 77.
97- سورة طه. آية: ١١٨، ١١٩.
98- يحيى بن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005، 2 / 149.
99- سورة هود: أية: 44
100- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص ٤٥ - 46 .
101- المرجع نفسه .
102- سورة التوبة أية 43
103- أبو السعود العمادي: إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود)، ٤ / ٦٨- ٦٩ .
104- سورة هود. أية ١٦
105- أبو السعود العمادي: إرشاد العقل السليم (تفسير أبي السعود)، 4 / 194 .
106- سورة آل عمران أية 40
107- سورة مريم أية 5-4
108- سورة مريم أية5-4
109- محمد بن حمزة الكرماني: أسرار التكرار في القرآن (البرهان في توجيه متشابه القرآن)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، القاهرة، 2012م، ص ٤٧ .
110- سورة البقرة آية 59-58
111- سورة الأعراف أية 161- 162
112- سورة الأعراف آية 159
113- ينظر في تحليل هذه الآيات: الخطيب الإسكافي(أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني ت 420هـ): درة التنزيل وغرة التأويل، تحقيق: محمد مصطفى آيدين، جامعة ام القرى، 1422هـ /2001م، 14 وما بعدها، محمد بن حمزة الكرماني: أسرار التكرار في القرآن ، ص 28 وما بعدها.
114- سورة النساء أية 82